إصدارات مخبر إسهامات علماء الجزائر في إثراء العلوم الإسلامية
كلية العلوم الإسلامية - جامعة الشهيد حمه لخضر - الوادي - الجزائر

بحوث الملتقى الدولي الثامن

جهود علماء الغرب الإسلامي في تنزيل النص القرآني على الواقع

بتاريخ: 21و22 ربيع الثاني 1444هـ / الموافق لـ 15 و16 نوفمبر 2022

توظيف أحداث بلاد الأندلس في تنزيل الآيات على الواقع عند الإمام القرطبي (ت671هـ) – نماذج مختارة –

ط.د/ مريم كروش – إشراف: د/ عباس منصر
قسم أصول الدين–معهد العلوم الإسلامية – جامعة الوادي
meriemkerrouche@gmail.com
abbasimam4@gmail.com

❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖

ملخص

جاءت هذه الورقة البحثية لتسلط الضوء على توظيف الأحداث التاريخية في بلاد الأندلس في قضية تنزيل الآيات على الواقع، واختير الإمام القرطبي لتطبيق هذا النوع من التنزيل كونه أحد الموظفين لأحداث التاريخ في التفسير العملي للقرآن الكريم.

وكان الإشكال الرئيس للبحث حول كيفية تطبيق أحداث التاريخ في تنزيل الآيات على الواقع عند الإمام القرطبي؟ لينتظم البحث في شقين نظري: فيه التعريف بالقرطبي وتفسيره وبيان عنايته بقضية التنزيل، وكذا تصوير تاريخ قرطبة والأندلس في عهد القرطبي حتى نضع البحث في سياقه التاريخي، وتطبيقي: من خلال نماذج منتخبة من الجامع لأحكام القرآن تبين إعمال الإمام القرطبي لأحداث التاريخ في التنزيل الواقعي لآيات القرآن.

وتبيّن من البحث أن أحداث التاريخ مفردة من مفردات تنزيل القرآن على الواقع، ولأدلّ على ذلك عناية أحد أقطاب التفسير ببلاد الأندلس بها.

الكلمات المفتاحية: القرطبي – تنزيل الآيات – تاريخ الأندلس.

مقدمة

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده وعلى آله وأصحاب ومن اهتدى بهديه وانظم إلى لواءه وحزبه، أما بعد

فإن جهود علماء الإسلام في التفسير جهود ملامسة للواقع، فلم يكتب المفسرون كتبهم مجردة ومثالية بعيدة عن بيئاتهم وما يتطلع الناس إليه في أوقاتهم، بل دونوا تفاسيرهم وبثوا فيها تفاعلاتهم مع الواقع وإسقاطات النصوص القرآنية على معاشهم، ومن هؤلاء العلماء علماء الغرب الإسلامي، ووقع اختياري على أحد هؤلاء المفسرين كونه اعتنى بقضية التنزيل أكثر من غيره وهو الإمام القرطبي، فكان عنوان هذه الورقات البحثية المقدمة لأشغال الملتقى الدولي حول «جهود علما الغرب الإسلامي في تنزيل النص القرآني على الواقع».

- توظيف أحداث بلاد الأندلس في تنزيل الآيات على الواقع عند الإمام القرطبي (ت671هـ) نماذج مختارة –

دوافع اختيار البحث: فالدوافع ذاتية وموضوعية

- رغبتي الشديدة في الوقوف على تنزيلات القرطبي في مجال تاريخ بلاد الأندلس.
- كون الإمام القرطبي من أكثر المفسرين عناية بإعمال أحداث التاريخ في حقل التفسير.
- شهود عصر الإمام القرطبي اضطرابات وحروب صليبية مع أعداء الإسلام في الأندلس.
- سقوط قرطبة في حياة الإمام القرطبي وإشارته إلى ذلك في أكثر من مناسبة في تفسيره الجامع لأحكام القرآن.

الإشكالية: والإشكالية الرئيسية التي يجيب عنها هذا البحث: ما هي أهم تنزيلات الإمام القرطبي في مجال أحداث بلاد الأندلس من خلال الأمثلة المنتخبة؟

المنهج: والمنهج المتبع في هذا البحث الاستقرائي المناسب للتتبع والتنقيب عن تنزيلات الإمام القرطبي في مجال الأحداث التاريخية، وكذا المنهج التاريخي في سرد بعض هذه الأحداث التاريخية.

خطة البحث: ولإنجاز هذا البحث رسمت الخطة التالية.

- مقدمة: فيها التعريف بالبحث: العنوان، دوافع الاختيار، الإشكالية، المنهج، الخطة.
- المبحث الأول: ترجمة الإمام القرطبي والتعريف بعصره وعنايته بتنزيل الآيات على الواقع.
- المبحث الثاني: أمثلة تطبيقية على توظيف القرطبي لأحداث بلاد الأندلس في تنزيل الآيات القرآنية على واقعه.
- خاتمة: فيها أهم النتائج والتوصيات.

المبحث الأول

ترجمة الإمام القرطبي والتعريف بعصره وعنايته بتنزيل الآيات على الواقع.

المطلب الأول: ترجمة موجزة للإمام القرطبي.

الفرع الأول: اسمه ونسبه.

محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح- بسكون الراء والحاء المهملة- الأنصاري الخزرجي المالكي أبو عبد الله القرطبي.[1]

الفرع الثاني: شيوخه وتلامذته.

سمع من ابن رواج، ومن ابن الجميزي، والشيخ أبي العباس أحمد بن عمر القرطبي شارح «مسلم» بعضه، وأبي علي الحسن بن محمد بن محمد البكري الحافظ، وغيرهم.

[1] ينظر: طبقات المفسرين: محمد بن علي الداوودي، دط، دار الكتب العلمية، بيروت، دت، 69/2.

وروى عنه خلق كثير منهم ولده شهاب الدين أحمد "[1].

الفرع الثالث: مصنفاته.

له مصنفات كثيرة منها ما ذكره الإمام الداوودي حيث قال: " جمع في تفسير القرآن كتابا كبيرا في خمسة عشر مجلدا، سماه كتاب «جامع أحكام القرآن والمبيّن لما تضمنه من السنة وآي القرآن، وهو من أجلّ التفسير وأعظمها نفعا، أسقط منه القصص والتواريخ، وأثبت عوضها أحكام القرآن، واستنباط الأدلة، وذكر القراءات، والإعراب، والناسخ والمنسوخ، وله «شرح الأسماء الحسنى» وكتاب في مجلدين سمّاه «الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى» وكتاب «التذكار في أفضل الأذكار» وضعه على طريقة «التبيان» للنووي لكن هذا أتم منه وأكثر علما، وكتاب «التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة» وكتاب «شرح التقصّي» وكتاب «قمع الحرص بالزهد والقناعة ورد ذل السؤال بالكتب والشفاعة». قال ابن فرحون: لم أقف على تأليف أحسن منه في بابه، وله «أرجوزة» جمع فيها أسماء النبي ﷺ، وله تآليف وتعاليق مفيدة غير هذه "[2].

الفرع الرابع: وفاته وثناء أهل العلم عليه.

قال عنه الإمام الذهبي: " إمام متفنّن متبحِّر في العلم، له تصانيف مفيدة تدلّ على كثرة اطّلاعه ووُفُور فضْله، تُوُفِّيَ فِي أوائل هَذِهِ السّنة (671هـ) بمُنْية بني خصيب من الصّعيد الأدنى "[3].

وذكره محمد مخلوف في شجرة النور الزكية وقال في حق: " العالم الإمام الجليل الفاضل الفقيه المفسر المحصل المحدث المتفنن الكامل "[4].

وقال ابن فرحون: " كان من عباد الله الصالحين والعلماء العارفين الورعين الزاهدين في الدنيا المشغولين بما يعنيهم من أمور الآخرة أوقاته معمورة ما بين توجه وعبادة وتصنيف. جمع في تفسير القرآن كتاباً كبيراً في اثني عشر مجلداً سماه كتاب جامع أحكام القرآن والمبين لما تضمن من السنة وآي القرآن وهو من أجل التفاسير وأعظمها نفعاً أسقط منه القصص والتواريخ وأثبت عوضها أحكام القرآن واستنباط الأدلة وذكر القراءات والإعراب

---

[1] المصدر نفسه: 69/2.

[2] المصدر نفسه: 70/2. وينظر: ينظر: ترجمته نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب: شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني، ط:2، دار صادر، بيروت، لبنان، 1997م، 210/2-211.

[3] تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام: شمس الدين الذهبي، تح: بشار عواد معروف، ط:1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2003م، 229/15.

[4] شجرة النور الزكية في طبقات المالكية: محمد بن سالم مخلوف، تع: عبد المجيد خيالي، ط: 1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1424هـ-2003م، 282/1.

والناسخ والمنسوخ "[1].

وقال عنه السيوطي: " مصنف التفسير المشهور، الذي سارت به الركبان"[2].

وقال ابن العماد الحنبلي: " صاحب التفسير «الجامع لأحكام القرآن» الحاكي مذاهب السّلف كلّها، وما أكثر فوائده. وكان إماما علما، من الغوّاصين على معاني الحديث، حسن التصنيف، جيد النقل "[3].

وقال الدكتور عادل نويهض: " من كبار المفسرين، محدث، صالح متعبد، من أهل قرطبة بالأندلس، رحل إلى المشرق واستقر بمنية ابن خصيب في شمالي أسيوط، بمصر، وتوفي فيها "[4].

المطلب الثاني: عناية الإمام القرطبي بتنزيل الآيات على الواقع في تفسيره.

يعد تفسير الإمام القرطبي من أجود التفاسير التي كتب في تفسير آيات الأحكام، فهو يعمد إلى السور والآيات ويذكر ما يندرج تحتها من مسائل وأحكام، وقد يخيل إلى من لا معرفة له بمنهج القرطبي أن تفسيره فقهي صرفٌ وهذا بالنظر إلى تسميته ((الجامع لأحكام القرآن)) وهذا مما لاشك فيه خطأ؛ لأن كلمة أحكام ليست مقتصرة على أحكام الفقه فحسب، بل هي جامعة وشاملة كل الأحكام العقدية والسلوكية والسياسية والمستجدات والنوازل... الخ، إذ يقول القرطبي مبينا غرضه من تفسيره: " فَضَمَّنْتُ كل آية تضمنت حُكْمًا أَوْ حُكْمَيْنِ فَمَا زَادَ، مَسَائِلَ نُبَيِّنُ فِيهَا مَا تَحْتَوِي عَلَيْهِ مِنْ أَسْبَابِ النُّزُولِ وَالتَّفْسِيرِ والْغَرِيبِ وَالْحُكْمِ، فَإِنْ لَمْ تَتَضَمَّنْ حُكْمًا ذَكَرْتُ مَا فِيهَا مِنَ التَّفْسِيرِ وَالتَّأْوِيلِ، هَكَذَا إِلَى آخَرِ الْكِتَابِ. وَسَمَّيْتُهُ بِ (الْجَامِعِ لِأَحْكَامِ الْقُرْآنِ، وَالْمُبَيِّنِ لِمَا تَضَمَّنَهُ مِنَ السُّنَّةِ وَآيِ الْفُرْقَانِ)"[5].

ولما كان الكلام في النوازل والمستجدات مادته الأولى ومنطلقه الأول واقع المفسر المعاش وما يطرأ في بيئته من حوادث، وما يحدث في عصر المفسر من قضايا مصيرية للأمة تسترعي اهتمام المفسر، كان لزاما على المفسر أن يتفاعل مع واقعه ويقرأ حوادث عصره، ويحاول أن

---

[1] الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب: إبراهيم بن علي المعروف بابن فرحون، تح: محمد الأحمدي أبو نور، دط، دار التراث للطبع والنشر، القاهرة، دت، 309/2.

[2] طبقات المفسرين: جلال الدين السيوطي، تح: علي محمد عمر، ط:1، مكتبة وهبه، القاهرة، 1396هـ، 92/1.

[3] شذرات الذهب في أخبار من ذهب: عبد الحي ابن العماد الحنبلي، تح: محمود الأرناؤوط، ط:1، دار ابن كثير، بيروت، 1406هـ-1986م، 585/7.

[4] معجم المفسرين من صدر الإسلام وحتى العصر الحاضر: عادل نويهض، تق: حسن خالد، ط:3، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت، 1409هـ-1988م، 479/2.

[5] الجامع لأحكام القرآن: القرطبي، تح: أحمد البردوني إبراهيم اطفيش، ط: 2، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1384هـ-1964م، 3/1.

ينطلق من القرآن ليجد حلولا للمعضلات التي تواجه المسلمين في زمنه، وهذا ديدن الإمام القرطبي، حيث يقول الدكتور عبد العزيز الضامر في معرض كلامه عن القرطبي وبيان عنايته بقضية التنزيل: " وكان من الأمور التي تطرق إليها في تفسيره قضية تنزيل الآيات على الواقع، كيف لا، وقد كان واقعه يضجّ بالقضايا والوقائع المتعددة على جميع الأصعدة في المشرق والمغرب، والتي كان من أبرزها تمكّن الصلبيين في الغرب والتتار في الشرق... فكان لا بد له من الرجوع إلى كتاب الله تعالى واستنطاق الآيات المناسبة لهذه الحوادث وتنزيلها عليها"[1].

وقد أشار القرطبي في مقدمة تفسيره أنه سيعتني بإيراد أحداث التاريخ التي لها أثر في الأحكام والمعاني وتحقق المطلوب من تفسير القرآن إذ يقول في معرض بيان مسلكه في عدم ذكر الإسرائيليات والقصص وحوادث التاريخ إلا ما تعلق بما سبق: " وَأَضْرِبُ عَنْ كَثِيرٍ مِنْ قَصَصِ المفسرين، وأخبار المؤرخين، إلا مالا بُدَّ مِنْهُ وَلَا غِنًى عَنْهُ لِلتَّبْيِينِ، وَاعْتَضَتُّ من ذلك تبيين آي الأحكام، بمسائل تفسر عَنْ مَعْنَاهَا، وَتُرْشِدُ الطَّالِبَ إِلَى مُقْتَضَاهَا "[2].

وقد كانت تنزيلات القرطبي تمتاز بالدقة والنظر الثاقب واستقلالية الرأي والإشارة إلى التنزيل مباشرة دون التلميح أو الإيماء حيث يقول الذهبي عنه: " فإن القرطبي رحمه الله في تفسيره هذا حُرٌّ في بحثه، نزيهٌ في نقده، عفٌّ في مناقشته وجدله، مُلِمٌّ بالتفسير من جميع نواحيه، بارع في كل فن استطرد إليه وتكلَّم فيه "[3].

المطلب الثالث: قرطبة في عصر الإمام القرطبي.

تعد قرطبة زمن الإمام القرطبي عاصمة الخلافة الأموية بإقليم الأندلس، فهي مركز الإشعاع العلمي والحضاري والعمراني ببلاد الأندلس، وتعد كبرى الحواضر الأندلسية ثقافة وفنونا، لأجل هذه المكانة التي كانت تحظى بها حرص القشتاليون النصارى أصحاب الصليب على الإطاحة بها واستردادها من أيدي المسلمين، فكان لهم ما أرادوا؛ إذ سقطت قرطبة بعد حروب الكرّ والفر والإغارة سنة 633هـ، وتتابعت القلاع الأندلسية في السقوط الواحدة تلوى الأخرى، وكان آخرها سقوطا غرناطة سنة 897هـ[4].

ويظهر بهذا ونحن نضع البحث في سياقه التاريخي أن زمن القرطبي كان مليئا بالتوتر واللاإستقرار وحياة التأهب الدائم خوفا على الأنفس والممتلكات نتيجة الإغارات والغدر الذي كان ينتهجه قادة الدولة القشتالية، وقد تفاعل الإمام القرطبي مع هذه الأحداث

---

[1] تنزيل الآيات على الواقع عند المفسرين نظرة تأصيلية: عبد العزيز بن عبد الرحمن الضامر، ط:1، دار ابن حزم، بيروت، 1435هـ- 2014م، ص 106.

[2] الجامع لأحكام القرآن: المرجع السابق، 3/1.

[3] التفسير والمفسرون: محمد حسين الذهبي، دط، مكتبة وهبه، القاهرة، دت، 341/2.

[4] ينظر: دولة الإسلام في الأندلس: محمد عبد الله عنان، ط:2، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1417هـ-1997م، 425-424/4.

ووثقها، بل ووظفها في معرض تنزيلاته للآيات على الواقع. وسنعرض لجملة من المواضع التي تم رصدها تبين عناية القرطبي بتوظيف الأحداث التاريخية في قرطبة خصوصا وفي الأندلس عموما يظهر من خلالها إسقاطات القرطبي للنص القرآني على أحداث زمنه، وفي المبحث الموالي طائفة من الأمثلة الموضحة.

المبحث الثاني: أمثلة تطبيقية على توظيف القرطبي لأحداث بلاد الأندلس في تنزيل الآيات القرآنية على واقعه.

1/ توثيق حرب الكر والفر بين النصارى والمسلمين في قرطبة:

فعند تفسير قوله تعالى ﴿ **وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا** ﴾ ذكر أن هذه الآية ومعها آية الجاثية وآية يس وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا.... كان يقرأها النبي ﷺ فيستتر من المشركين ثم علق القرطبي منزلا هذه الآية على حادثة حدثت معه شخصيا في قرطبة فقال: " قلت: ويزاد إلى هذه الآية أَوَّلُ سُورَةِ يس إِلَى قَوْلِهِ" فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ". فَإِنَّ فِي السِّيرَةِ فِي هِجْرَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمُقَامِ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي فِرَاشِهِ قَالَ: وَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَخَذَ حَفْنَةً مِنْ تُرَابٍ فِي يَدِهِ، وَأَخَذَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى أَبْصَارِهِمْ عَنْهُ فَلَا يَرَوْنَهُ، فَجَعَلَ ينثر ذلك التراب على رؤوسهم وَهُوَ يَتْلُو هَذِهِ الْآيَاتِ مِنْ يس: " يس وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ. إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ. عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ. تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ."- إِلَى قَوْلِهِ-" وَجَعَلْنا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْناهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ". حَتَّى فَرَغَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ هَذِهِ الْآيَاتِ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ رَجُلٌ إِلَّا وَقَدْ وَضَعَ عَلَى رَأْسِهِ تُرَابًا، ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَى حَيْثُ أَرَادَ أَنْ يَذْهَبَ. قُلْتُ: **وَلَقَدِ اتَّفَقَ لِي بِبِلَادِنَا الْأَنْدَلُسِ بِحِصْنٍ مَنْثُورٍ مِنْ أَعْمَالِ قُرْطُبَةَ مِثْلُ هَذَا.** وَذَلِكَ أَنِّي هَرَبْتُ أَمَامَ الْعَدُوِّ وَانْحَزْتُ إِلَى نَاحِيَةٍ عَنْهُ، فَلَمْ أَلْبَثْ أَنْ خَرَجَ فِي طَلَبِي فَارِسَانِ وَأَنَا فِي فَضَاءٍ مِنَ الْأَرْضِ قَاعِدٌ لَيْسَ يَسْتُرُنِي عَنْهُمَا شيء، وَأَنَا أَقْرَأُ أَوَّلَ سُورَةِ يس وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْقُرْآنِ، فَعَبَرَا عَلَيَّ ثُمَّ رَجَعَا مِنْ حَيْثُ جَاءَا وَأَحَدُهُمَا يَقُولُ لِلْآخَرِ: هَذَا دَيْبَلَةٌ[1] ، يَعْنُونَ شَيْطَانًا. وَأَعْمَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَبْصَارَهُمْ فَلَمْ يَرَوْنِي، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا كَثِيرًا عَلَى ذلك "[2].

2/ توثيق سبب سقوط قلاع الأندلس الضائعة بسبب ترك الجهاد:

فعند قوله تعالى ﴿ **كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ** ﴾ نزّل هذه الآية على أهل الأندلس متأسفا على ضياع جوهرة الإسلام الضائعة فضاعت الأندلس حين ترك

[1] كلمة فرنسية تعني إبليس أو شيطان وهي موجودة في قاموس الفرنسية le diable ولعل هذه الكلمة من لغة اللاتين التي تفرقت فيما بعد إلى لغات عديدة ولكن أصلها واحد.

[2] الجامع لأحكام القرآن: 270/10.

المسلمون الجهاد في سبيل الله قال متأسفا ومنزّلا: " قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ:" عَسَى" مِنَ اللَّهِ إِيجَابٌ، وَالْمَعْنَى عَسَى أَنْ تَكْرَهُوا مَا فِي الْجِهَادِ مِنَ الْمَشَقَّةِ وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ فِي أَنَّكُمْ تَغْلِبُونَ وَتَظْفَرُونَ وَتَغْنَمُونَ وَتُؤْجَرُونَ، وَمَنْ مَاتَ مَاتَ شَهِيدًا، وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا الدَّعَةَ وَتَرْكَ الْقِتَالِ وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ فِي أَنَّكُمْ تُغْلَبُونَ وَتَذِلُّونَ وَيَذْهَبُ أَمْرُكُمْ. قُلْتُ: وَهَذَا صَحِيحٌ لَا غُبَارَ عَلَيْهِ، **كَمَا اتَّفَقَ فِي بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ، تَرَكُوا الْجِهَادَ وَجَبُنُوا عَنِ الْقِتَالِ** وَأَكْثَرُوا مِنَ الْفِرَارِ، فَاسْتَوْلَى الْعَدُوُّ عَلَى الْبِلَادِ، وَأَيُّ بِلَادٍ؟! وَأَسَرَ وَقَتَلَ وَسَبَى وَاسْتَرَقَّ، فَإِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ! ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِينَا وَكَسَبَتْهُ! "[1].

3/ توظيف فتح بلاد الأندلس على يد طارق بن زياد:

فعند قوله تعالى ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ** ﴾ وفي معرض ذكر مسألة متى يسمى الفرار من العدو توليا منهيا عنه؟ وذكر آراء أهل العلم ومنهم الجمهور في المسألة بتفصيل، متى كان الفرار من ضِعْف عدد المؤمنين فما دون كان النهي منصرفا إلى ذلك ومتى كان عدد الكفار أضعافا كثيرة لم يسمى ذلك توليا واستشهد القرطبي بغزوة مؤتة وانسحاب خالد بن الوليد من جحالف الروم وكانوا مأتي ألف في وجه ثلاثة آلاف ثم قال القرطبي: والصبر أفضل واستشهد بحادثة فتح الأندلس على يد طارق بن زياد وهذا تنزيل قبلي سابق لزمن المفسر فقال رحمة الله عليه: " الثَّانِيَةُ- أَمَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَلَّا يُوَلِّيَ الْمُؤْمِنُونَ أَمَامَ الْكُفَّارِ. وَهَذَا الْأَمْرُ مُقَيَّدٌ بِالشَّرِيطَةِ الْمَنْصُوصَةِ فِي مِثْلَيِ الْمُؤْمِنِينَ، فَإِذَا لَقِيَتْ فِئَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِئَةً هِيَ ضِعْفُ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَالْفَرْضُ أَلَّا يَفِرُّوا أَمَامَهُمْ. فَمَنْ فَرَّ مِنَ اثْنَيْنِ فَهُوَ فَارٌّ مِنَ الزَّحْفِ. وَمَنْ فَرَّ مِنْ ثَلَاثَةٍ فَلَيْسَ بِفَارٍّ مِنَ الزَّحْفِ، وَلَا يَتَوَجَّهُ عَلَيْهِ الْوَعِيدُ. وَالْفِرَارُ كَبِيرَةٌ مُوبِقَةٌ بِظَاهِرِ الْقُرْآنِ وَإِجْمَاعِ الْأَكْثَرِ مِنَ الْأَئِمَّةِ. وَقَالَتْ فِرْقَةٌ مِنْهُمُ ابْنُ الْمَاجِشُونَ فِي الْوَاضِحَةِ: إِنَّهُ يُرَاعَى الضَّعْفُ وَالْقُوَّةُ وَالْعِدَّةُ، فَيَجُوزُ عَلَى قَوْلِهِمْ أَنْ يَفِرَّ مِائَةُ فَارِسٍ مِنْ مِائَةِ فَارِسٍ إِذَا عَلِمُوا أَنَّ مَا عِنْدَ الْمُشْرِكِينَ مِنَ النَّجْدَةِ وَالْبَسَالَةِ ضِعْفُ مَا عِنْدَهُمْ. وَأَمَّا عَلَى قَوْلِ الجمهور فلا يحل فرار مائة إلا مِمَّا زَادَ عَلَى، الْمِائَتَيْنِ، فَمَهْمَا كَانَ فِي مُقَابَلَةِ مُسْلِمٍ أَكْثَرُ مِنَ اثْنَيْنِ فَيَجُوزُ الِانْهِزَامُ، وَالصَّبْرُ أَحْسَنُ. وَقَدْ وَقَفَ جَيْشُ مُؤْتَةَ وَهُمْ ثَلَاثَةُ آلَافٍ فِي مُقَابَلَةِ مِائَتَيْ أَلْفٍ، مِنْهُمْ مِائَةُ أَلْفٍ مِنَ الرُّومِ، وَمِائَةُ أَلْفٍ مِنَ الْمُسْتَعْرِبَةِ مِنْ لَخْمٍ وَجُذَامَ. قُلْتُ: **وَوَقَعَ فِي تَارِيخِ فَتْحِ الْأَنْدَلُسِ**، أَنَّ طَارِقًا مَوْلَى مُوسَى بْنِ نُصَيْرٍ سَارَ فِي أَلْفٍ وَسَبْعمِائَةِ رَجُلٍ إِلَى الْأَنْدَلُسِ، وَذَلِكَ فِي رَجَبَ سَنَةَ ثَلَاثٍ وَتِسْعِينَ مِنَ الْهِجْرَةِ، فَالْتَقَى وَمَلِكَ الْأَنْدَلُسِ لَذْرِيقَ وَكَانَ فِي سَبْعِينَ أَلْفَ عَنَانٍ، فَزَحَفَ إِلَيْهِ طَارِقٌ وَصَبَرَ لَهُ فَهَزَمَ اللَّهُ الطَّاغِيَةَ لَذْرِيقَ، وَكَانَ الْفَتْحُ "[2].

---

[1] المصدر السابق: 39/3.

[2] المصدر نفسه: 381/7.

4/ توثيق استشهاد والده بقرطبة سنة 627هـ:

وعند قوله تعالى ﴿ **وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ** ﴾ طرح مسألة حكم الشهادة في سبيل الله وهل المقتول في غير المعترك يسمى شهيدا أم لا؟ ووظّف نازلة نزلت بهم في قرطبة فقال رحمة الله عليه: " الْخَامِسَةُ- الْعَدُوُّ إِذَا صَبَّحَ قَوْمًا فِي مَنْزِلِهِمْ وَلَمْ يَعْلَمُوا بِهِ فَقَتَلَ مِنْهُمْ فَهَلْ يَكُونُ حُكْمُهُ حُكْمَ قَتِيلِ الْمُعْتَرَكِ، أَوْ حُكْمَ سَائِرِ الْمَوْتَى، **وَهَذِهِ الْمَسْأَلَةُ نَزَلَتْ عِنْدَنَا بِقُرْطُبَةَ أَعَادَهَا الله: أغار العدو قصمه اللَّهُ**- صَبِيحَةَ الثَّالِثِ مِنْ رَمَضَانَ الْمُعَظَّمِ سَنَةَ سَبْعٍ وَعِشْرِينَ وَسِتِّمِائَةٍ وَالنَّاسُ فِي أَجْرَانِهِمْ عَلَى غَفْلَةٍ، فَقَتَلَ وَأَسَرَ، وَكَانَ مِنْ جُمْلَةِ مَنْ قُتِلَ وَالِدِي رَحِمَهُ اللَّهُ، فَسَأَلْتُ شَيْخَنَا الْمُقْرِئَ الْأُسْتَاذَ أَبَا جَعْفَرٍ أَحْمَدَ الْمَعْرُوفَ بِأَبِي حِجَّةَ فقال، غسله وصلي عَلَيْهِ، فَإِنَّ أَبَاكَ لَمْ يُقْتَلْ فِي الْمُعْتَرَكِ بَيْنَ الصَّفَّيْنِ. ثُمَّ سَأَلْتُ شَيْخَنَا رَبِيعَ بْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ رَبِيعِ بْنِ أُبَيٍّ فَقَالَ: إِنَّ حُكْمَهُ حُكْمُ الْقَتْلَى فِي الْمُعْتَرَكِ. ثُمَّ سَأَلْتُ قَاضِيَ الْجَمَاعَةِ أَبَا الْحَسَنِ عَلِيَّ بْنَ قَطْرَالٍ وَحَوْلَهُ جَمَاعَةٌ مِنَ الْفُقَهَاءِ فَقَالُوا: غَسِّلْهُ وَكَفِّنْهُ وَصَلِّ عَلَيْهِ، فَفَعَلْتُ. ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ وَقَفْتُ عَلَى الْمَسْأَلَةِ فِي" التَّبْصِرَةِ" لِأَبِي الْحَسَنِ اللَّخْمِيِّ وَغَيْرِهَا. وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ قَبْلَ ذَلِكَ مَا غَسَّلْتُهُ، وَكُنْتُ دَفَنْتُهُ بِدَمِهِ فِي ثِيَابِهِ "[1].

5/ توظيف ضعف المسلمين وتفرقهم وتسلط العدو عليهم:

فعند قوله تعالى ﴿ **قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ** ﴾ نزل الإمام القرطبي هذه الآية على حال المسلمين في بلاده بعد ذكره لأقوال السلف في معناها هل هي في الكفار خاصة أم عامة للمسلمين والكفار أم خاصة في أهل القبلة قال منزلا ومسقطا الآية على واقعه وحال المسلمين في بلاد الأندلس: " (وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ) أَيْ بِالْحَرْبِ وَالْقَتْلِ فِي الْفِتْنَةِ، عَنْ مُجَاهِدٍ. وَالْآيَةُ عَامَّةٌ فِي الْمُسْلِمِينَ وَالْكُفَّارِ. وَقِيلَ هِيَ فِي الْكُفَّارِ خَاصَّةً. وَقَالَ الْحَسَنُ: هِيَ فِي أَهْلِ الصَّلَاةِ. قُلْتُ: وَهُوَ الصَّحِيحُ، فَإِنَّهُ الْمُشَاهَدُ فِي الْوُجُودِ، **فَقَدْ لَبِسَنَا الْعَدُوُّ فِي دِيَارِنَا وَاسْتَوْلَى عَلَى أَنْفُسِنَا وَأَمْوَالِنَا، مَعَ الْفِتْنَةِ الْمُسْتَوْلِيَةِ عَلَيْنَا** بِقَتْلِ بَعْضِنَا بعضا واستباحة بعضنا أموال بعض. نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الْفِتَنِ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ. وَعَنِ الْحَسَنِ أَيْضًا أَنَّهُ تَأَوَّلَ ذَلِكَ فِيمَا جَرَى بَيْنَ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ "[2].

6/ تنزيل الآية الأولى من سورة العنكبوت على ثغور المسلمين ببلاد الأندلس وغيرها:

فعند قوله تعالى ﴿ **أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ** ﴾ أقرّ الإمام ابن عطية على تنزيله هذه الآية في ثغور السلمين وخطوط التمّاس مع بلاد الكفر،

---

[1] المصدر السابق: 272/4.

[2] المصدر السابق: 9/7.

فأورد قول ابن عطية الذي يرى أن الآية وإن نزلت في سبب خاص إلا العبرة بالعموم عملا للقاعدة المشهورة قال رحمه الله: " قَالَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُهُ: نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ مُسَلِّيَةً وَمُعْلِمَةً أَنْ هَذِهِ هِيَ سِيرَةُ اللَّهِ فِي عِبَادِهِ اخْتِبَارًا لِلْمُؤْمِنِينَ وَفِتْنَةً. **قَالَ ابْنُ عَطِيَّةَ:** وَهَذِهِ الْآيَةُ وَإِنْ كَانَتْ نَزَلَتْ بِهَذَا السَّبَبِ أَوْ مَا فِي مَعْنَاهُ مِنَ الْأَقْوَالِ فَهِيَ بَاقِيَةٌ فِي أُمَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مَوْجُودٌ حُكْمُهَا بَقِيَّةَ الدَّهْرِ. وَذَلِكَ أَنَّ الْفِتْنَةَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى **بَاقِيَةٌ فِي ثُغُورِ الْمُسْلِمِينَ بِالْأَسْرِ وَنِكَايَةِ الْعَدُوِّ وَغَيْرِ ذَلِكَ.** وَإِذَا اعْتُبِرَ أَيْضًا كُلُّ مَوْضِعٍ فَفِيهِ ذَلِكَ بِالْأَمْرَاضِ وَأَنْوَاعِ الْمِحَنِ. وَلَكِنَّ الَّتِي تُشْبِهُ نَازِلَةَ الْمُسْلِمِينَ مَعَ قُرَيْشٍ هِيَ مَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ أَمْرِ الْعَدُوِّ فِي كُلِّ ثَغْرٍ. **قُلْتُ: مَا أَحْسَنَ مَا قَالَهُ، وَلَقَدْ صَدَقَ فِيمَا قَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** "[1].

هذا إقرار من الإمام القرطبي لتنزيل الإمام ابن عطية رحمهما الله تعالى فقد وافق على هذا التنزيل واستحسن ما قاله بل وصدقه فيما ذهب إليه فاتفقت القريحة الفكرية للقرطبي مع ما جادت به خاطرة الإمام ابن عطية فاتفق في هذا التنزيل عالمان جليلان من أئمة الأمة في التفسير وأيُّ عالمين !!!

الخاتمة

– تنزيلات الإمام القرطبي على حوادث بلاد الأندلس وثّقت لأحداث تاريخية ذكرها المؤرخون في كتبهم، وبعضها انفرد القرطبي بتوثيقها.

– هذه التنزيلات تعدّ تفاعلا من القرطبي مع واقع أمته في وطنه وتفسيره غني بأنواع التنزيلات الأخرى الفقهية والعقدية والسلوكية.

– إسقاط القرآن على الواقع ليس حكرا على لون التفسير الموضوعي الذي ظهر في العصر الحديث بل إن للمفسرين القدامى قصب السبق في الممارسة العملية لقضية التنزيل والإمام القرطبي واحد من هؤلاء.

التوصيات

– نوصي بجمع واستقراء تنزيلات الإمام القرطبي بأنواعها فهي حريّة بالجمع والدراسة والتحليل.

قائمة المصادر والمراجع

- شجرة النور الزكية في طبقات المالكية: محمد بن سالم مخلوف، تع: عبد المجيد خيالي، ط: 1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1424هـ-2003م.
- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام: شمس الدين الذهبي، تح: بشار عواد معروف، ط:1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2003م.

[1] المصدر نفسه: 324/13.

- الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب: إبراهيم بن علي المعروف بابن فرحون، تح: محمد الأحمدي أبو نور، دط، دار التراث للطبع والنشر، القاهرة، دت.
- طبقات المفسرين: جلال الدين السيوطي، تح: علي محمد عمر، ط:1، مكتبة وهبه، القاهرة، 1396هـ.
- طبقات المفسرين: محمد بن علي الداوودي، دط، دار الكتب العلمية، بيروت، دت.
- شذرات الذهب في أخبار من ذهب: عبد الحي ابن العماد الحنبلي، تح: محمود الأرناؤوط، ط:1، دار ابن كثير، بيروت، 1406هـ-1986م.
- معجم المفسرين من صدر الإسلام وحتى العصر الحاضر: عادل نويهض، تق: حسن خالد، ط:3، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت، 1409هـ-1988م.
- الجامع لأحكام القرآن: القرطبي، تح: أحمد البردوني إبراهيم اطفيش، ط: 2، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1384هـ-1964م.
- تنزيل الآيات على الواقع عند المفسرين نظرة تأصيلية: عبد العزيز بن عبد الرحمن الضامر، ط:1، دار ابن حزم، بيروت، 1435هـ- 2014م.
- التفسير والمفسرون: محمد حسين الذهبي، دط، مكتبة وهبه، القاهرة، دت.
- دولة الإسلام في الأندلس: محمد عبد الله عنان، ط:2، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1417هـ-1997م.
- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب: شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني، ط:2، دار صادر، بيروت، لبنان، 1997م.